African Journal of Advanced Studies in Humanities and Social Sciences (AJASHSS)
المجلة الإفريقية للدراسات المتقدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية
Online-ISSN: 2957-5907
Volume 2, Issue 1, January-March 2023, Page No: 183-201
Website: https://aaasjournals.com/index.php/ajashss/index

التسامح: الجذور الفكرية والمنطلقات الشرعية

بليدار بن توفيق حجي*
باحث الدكتوراه، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم، المـملكة العربية الســعودية

Tolerance: Intellectual Roots and Sharia Premises

Bledar Tefik Haxhiu*
PhD Researcher, College of Sharia and Islamic Studies, Department of Doctrine and contemporary ideology, Qassim University, Qassim, Saudi Arabia

*المؤلف المراسل	rrugequmshti@gmail.com	*Corresponding author
تاريخ الاستلام: 2022-12-17	**تاريخ القبول:** 2023-01-14	**تاريخ النشر:** 2023-01-16

الملخص
إن موضوع التسامح كما هو معلوم من الموضوعات المهمة، التي يكثر تناولها في وسائل الإعلام والاتصال، وقد عقدت له العديد من الندوات العلمية، والمؤتمرات العالمية، والملتقيات الفكرية، وهو من الموضوعات التي مازالت تشغل بال المجتمعات الإنسانية اليوم بسبب الاختلاف في مفهومه، وطريقة طرحه وعرضه، والتي جعلت التسامح قضية لا بد من تناول جذوره وأبعاده وحقيقته كما يرى الإسلام، لذا أعددت هذا البحث المتواضع عن هذه القضية الشائكة، محاولًا أن أذكر أبرز المسائل التي رأيت أن لها علاقة مباشرة بقضية التسامح واختصارها قدر الإمكان.

الكلمات المفتاحية: التسامح، الكلمة الجذور، الفكرية، الكلمة المنطلقات، الشرعية.

Aabstract
The issue of tolerance, as is well known, is one of the important topics that are frequently discussed in the media and communication, and many scientific symposiums, international conferences, and intellectual forums have been held for it. , which made tolerance an issue whose roots, dimensions, and reality must be dealt with as Islam sees it, so I prepared this modest research on this interesting issue, trying to mention the most prominent issues that I saw that have a direct relationship to the issue of tolerance, taking into account the brevity.

Keywords: Tolerance; intellectual; roots; sharia; premises

مقدمة:
الحمد لله القائل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22]، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على من بعث رحمة للعالمين.
إن موضوع التسامح لها أهمية بالغة، والتي سأبينها من خلال النقاط التالية:

1. الحاجة إلى إبراز فضائل الإسلام، وبيان الظروف التي هيأها الإسلام للتسامح بين المسلمين وغير المسلمين.
2. شدة حاجة المجتمعات المسلمة لإيضاح صور التسامح المشروعة والممنوعة وفق التصور الإسلامي الصحيح، الذي يهتدي بما كان عليه الصحابة والتابعون، ومن تبعهم بإحسان، حتى لا تنخدع من شعارات الغرب البراقة.
3. التصدي للأقلام التي تناولت موضوع التسامح، وحاولت ترسيخ مفاهيم التسامح بالمنظور الغربي في المجتمعات الإسلامية.
4. التصدي لما تروج له بعض الدوائر الغربية التي تتهم الإسلام بأنه يحض أتباعه للتهوين من قيمة وإنسانية الإنسان غير المسلم، خاصة بعد أحداث 9/11.

الدراسات السابقة:

لقد عني العلماء والباحثين بموضوع التسامح حيث كتبوا فيه كتابات عدة، ومما وقفت عليه:

1- التسامح والتعايش بين المسلمين وغيرهم دراسة عقدية، د. عجلان بن محمد العجلان، ولم أتطلع على هذا الكتاب.

2- تسامح الغرب مع المسلمين في العصر الحاضر، عبد اللطيف بن إبراهيم الحسين، أصلها رسالة علمية، دار ابن الجوزي-1998م.

3- التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، صالح بن عبد الرحمن الحصين.

4- التسامح بين شرق والغرب، دراسات في التعايش والقبول بالأخر، ترجمة: إبراهيم العريس، دار الساقي.

خطة البحث:

لقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث، وعدة مطالب، وخاتمة:

المقدمة وفيها:

أهمية البحث:

دراسات السابقة:

خطة البحث:

المبحث الأول: مفهوم التسامح

المطلب الأول: معنى التسامح في اللغة.

المطلب الثاني: معنى التسامح في الاصطلاح الغربي والإسلامي.

المطلب الثالث: مناقشة التعريفات.

المبحث الثاني: جذور الفكرية لقضية التسامح:

المطلب الأول: أسباب التي أدت إلى نتاج فكرة التسامح.

المطلب الثاني: رواد نظرية التسامح ومؤسسوه.

المطلب الثالث: الأسس الفكرية للتسامح في الغرب.

المبحث الثالث: منطلقات الشرعية للتسامح:

المطلب الأول: الإسلام دين التسامح.

المطلب الثاني: من صور التسامح الإسلامي.

المطلب الثالث: نماذج من تسامح المسلمين مع غيرهم.

المطلب الرابع: ضوابط لتسامح.

الخاتمة

قائمة المراجع

المبحث الأول: مفهوم التسامح

المطلب الأول: معنى التسامح في اللغة

يقول ابن منظور: "(سمح) السين والميم والحاء أصل يدل على سلاسة وسهولة"[1]. ويطلق التسامح ويراد به معنيان:

الأول: بمعنى الجود والكرم: قال ابن منظور: "السماح والسماحة: "الجود. سَمُحَ سَماحَةً وسُمُوحة وسَماحاً: جَادَ؛ ورجلٌ سَمْحٌ وَامْرَأَةٌ سَمْحة مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ سِماحٍ وسُمَحاء ... وَرَجُلٌ سَمِيحٌ ومِسْمَح ومِسْماحٌ؛ أي سَمْح؛ وَرِجَالٌ مَسامِيحُ وَنِسَاءٌ مَسامِيحُ... والإسماح: لُغَةٌ فِي السَّماحِ؛ يقَالُ: سَمَحَ وأَسْمَحَ إِذا جَادَ وأَعطى عَنْ كَرَمٍ وسَخاءٍ"[2]

والثاني: بمعنى التساهل: والمسامحة: المساهلة. وتسامحوا: تساهلوا، وسمح وتسمح: فعل شيئًا فسهل فيه... وقولهم: الحنفية السمحة: ليس فيها ضيق ولا شدة "[3]. إذا فالدلالة اللغوية لمفهوم التسامح تستبطن المنة والكرم، والسخاء والتساهل.

لكن بعض المفكرين يرون أن اللغة العربية لا تنطوي على مفهوم واضح للتسامح بالمعنى المعاصر للكلمة، وأن الجذر اللغوي للفظ التسامح المستخدم لا يعبر عن المعاني الحديثة للتسامح ما دامت تعني الكرم والجود والمسامحة.

ومن جهة أخرى يشيع استخدام لفظ التسامح بمعنىالعفو والتنازل، ولفظ السماح بمعنى الموافقة، وعدم الاعتراض، ولفظ السماحة بمعنى الزين والجمال سواء الماورائي أو المعنوي.[4]

ولعل الذي جعل هؤلاء المفكرين يذهبون هذا الرأي، هو أنهم حاولوا توفيق بين معنى اللفظ التسامح والدلالاتها باللغة العربية، ومعنى الذي يحملها في الثقافة الغربية، وهذا يجعلنا أن نتطرق إلى معنى التسامح في الثقافة الغرب.

التسامح في الثقافة الغربية:

بالرجوع إلى قاموس المورد، نجد أن تسامح تأتي على معنى "Tolerance"، وفعلها يتسامح "Tolerate"، وصفتها متسامح "Tolerant"، أي قادر على احتمال[5].

ويذكر بعضهم بأن كلمة التسامح في فكر الغربي: "Toleration" مشتقة في الأصل من الجذر اللاتيني Tolerte الذي يعني التحمل أو المعاناة أو التعايش مع شيء لا يحب في الحقيقة، أو يمكن أن يعتبر لا أخلاقيا؛ بل ربما شرا بصورة من الصور[6].

المطلب الثاني

معنى التسامح في الاصطلاح الغربي والإسلامي

في هذا المطلب سنبدأ بتعريف التسامح في اصطلاح الغرب لأن كثير من مفكر الإسلام وكتابه، كتبوا عن التعايش بهذا المنطلق، أو متأثرين بهذا المعنى.

يذكر فيلسوف فولتر "Voltaire"[7] في تعريف التسامح: "إنه نتيجة ملازمة لكينونتنا البشرية إننا جميعًا من نتاج الضعف، كلنا هشون وميالون للخطأ، لذا دعونا نتسامح بعضنا البعض، ونتسامح بشكل متبادل. وذلك هو مبدأ الأول لقانون الطبيعة، المبدأ لحقوق الإنسان كافة"[8].

جاء معنى التسامح في دائرة المعارف الأمريكية: "بأنه قيمة رفيعة تنطلق منه التعامل مع الآخرين، لذا فهو أمر صعب مبدأ حقيقي، ونحن نتسامح بمن يشاركنا في اللغة والثقافة والمجموعة العرقية، فهذه

(1) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون: (99/3)، دار الفكر-1399هـ.
(2) لسان العرب، ابن منظور، ط3: (489/2)، دار الصادر، بيروت-1414هـ.
(3) مصدر السابق: (489/2).
(4) ينظر: خطاب التسامح في فكر الأنوار، مسدوة وهيبة: (ص 11-12)، رسالة ماجستير، جامعة السانية الجزائر-2011م.
(5) قاموس المورد إنجليزي العربي، لمنير البعلبكي، حرف "t": (ص 975)، دار العلم للملايين-2007م.
(6) ينظر: التسامح بين شرق والغرب لسمير خليل وآخرين، ترجمة إبراهيم العريس، ط1: (ص 6-7)، دار الساقي-1992م.
(7) سيأتي تعريفه فيما بعد.
(8) التسامح بين الشرق والغرب: (ص 76).

الأسس هي التي تقوم عليها العلاقات البشرية خلال العصور...، لكن هناك حقيقة مهمة وهي لا بد من التلاقي مع المخالف بأي شكل، سواء كان الاختلاف معه خلقيًا أم ثقافيًا أم سياسيًا"[9].

وأوردت منظمة التربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) في نشرة خاصة لها تعريفات عديدة للتسامح من ذلك: "احترام الآخرين وحرياتهم، والاعتراف بالاختلافات بين الأفراد والقبول بها... والتسامح هو تقدير التنوع الثقافي، وهو الانفتاح على الأفكار والفلسفات الأخرى بدافع الاطلاع وعدم رفض ما هو غير معروف..." [10].

وقيل إن التسامح هو: "رضا المرء برأيه اعتقاد الصحة فيه، واحترامه رأي الغير كائنا من كان، رجوعا إلى معاملة الناس بما يريد أن يعاملوه"[11].

التسامح في اصطلاح الإسلاميين:

يرى المودودي أن التسامح هو: "أن نتحمل عقائد غيرنا وأعمالهم على كونها باطلة في نظرنا، ولا نظن فيهم بما يؤلمهم[12]، رعاية لعواطفهم وأحاسيسهم، ولا نلجأ إلى وسائل الجبر والإكراه لتصريفهم عن عقائدهم، أو منعهم مما يقومون به من الأعمال"[13].

ويقول الدكتور محمد فاروق النبهاني أن التسامح: "يعني التساكن والتعايش في إطار رؤية إسلامية تحترم حق الآخر في الرأي والعقيدة والفكر"[14].

ويرى الطاهر بن عاشور أن السماحة هي: "سهولة المعاملة في اعتدال، فهي وسط بين التضييق والتساهل، وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط – أو هي عبارة عن – السهولة المحمودة فيما يظن الناس التشديد فيه، ومع كونها محمودة أنها لا تقضي إلى ضرر وإفساد"[15].

والملاحظ في هذه التعريفات: أنها أخذت بالفهم اللغوي للفظة "السّماحة"، وخصصته للمسلك التعاملي، وتحديد علاقة المسلم مع الآخر، التي تتسع للفكر، والرأي، والمشاعر، والتعايش، وما يترتب على هذه الأمور من علاقات إيجابية وفاعلة، وأنها لم تحدد مقاصد السماحة، بل اكتفت بمناحيها التعاملية، وما يترتب عليه.

ويرى بعض الآخر أن التسامح بمعناه الاصطلاحي غريب على البيئة العربية الإسلامية، وغائب عن لغتها وأنماط تفكيرها، فهو بحاجة إلى مزيد من التنظير والموائمة، كي يتم (تبيئته) بشكل يحافظ على فاعليته وتأثيره ضمن الأنساق الثقافية الفكرية للمجتمع. [16]

لكن هناك فئة من المفكرين والكتاب لا يرون استعمال مصطلح التسامح، يقول محمد سعيد البوطي: "بحثت عن كلمة (التسامح) هذه في أمهات كتب الفقه والتراث الإسلامي في نطاق الحديث عن أحكام الإسلام وشرائعه فلم أجد من استعملها في هذا المجال القط... وإنما هي كلمة درجت على ألسنة طائفة من الكتاب والباحثين في هذا العصر، يرددونها كلما أرادوا أن يبرزوا معنى الإنساني في شرائع الإسلام وأحكامه"[17].

وقال عبد الرحمن بن سعد الشتري: "ولعل من يدعو إلى هذا الفكر، يجهل أن المناداة بما يسمى التعايش مع الآخر، الانفتاح، التسامح...إلخ، فهي دعوة الداعين إلى وحدة الأديان"[18].

---

(9) ينظر: The Encyclopedia Americana (675/26)، نيو يورك-1920م.

(10) مفهوم التعايش في الإسلام، عباس الجراري: (52-53)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)-1417هـ.

(11) ينظر: أضواء على التعصب، مجموعة مؤلفين، ط1: (ص 178)، دار أمواج، لبنان-1993م.

(12) العل العبارة فيها إيهام، وينبغي التفريق بين تصورنا لباطلهم واستياؤنا والتصريح بذلك لهم إذا لم تكن حاجة لذلك.

(13) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، أبو الأعلى المودودي، ترجمة: خليل أحمد الحامدي، ط4: (ص 39-40)، دار القلم، الكويت-1400هـ.

(14) مفهوم التسامح في إطار الرؤية الإسلامية، المجلة المنهل، العدد 518: (ص 22)، ربيع الأول-1415هـ.

(15) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد طاهر عاشور، التحقيق: محمد الحبين بن الخوجة: (188/3)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر-1425هـ.

(16) التسامح والمنابع اللاتسامح، ماجد الغرباوي، ط1: (ص 21)، الحضارة، بغداد-1429هـ.

(17) الجهاد في الإسلام، محمد سعيد البوطي، ط1: (ص 144)، دار الفكر، دمشق-1414هـ.

(18) الفرقان في بيان حقيقة التقارب والتعايش بين الفرق والأديان، عبد الرحمن بن سعد الشتري: (ص 7)، شبكة الألوكة.

المطلب الثالث: مناقشة التعريفات.

يمكن لنا أن نربط بين التعريفات التسامح لدى الغربيين: بأنها فكرة فلسفية، وقيمة أخلاقية واجتماعية، والدينية، وتنوع ثقافي يدعو إلى تحرر وفق منظور القانون.

بالنظر فيما مضى يتضح أن بين أوساط الإسلاميين، سوى كانوا مفكرين أو الكتاب اتجاهان في استعمال كلمة التسامح:

الأول: الذي يقبلها ولا يرى في ذلك بأسًا في حدود ما قررته الشريعة الإسلامية.

والثاني: لا يقبلها البتة بحجة أنها حديثة درجت على ألسنة أعداء الدين والكتاب الذين وقعوا في شباكهم، وأنها لم ترد بمعنى الذي ذهبوا إليه في القرآن ولا في السنة، ولم يستعملها علماء السابقين.

وعلى هذا يمكن أن يقال إنه يمكن التعامل بهذه الكلمة كأي لفظ أو عبارة وافدة، فيقبل منها ما يوافق الشريعة الإسلام وروحه ومقاصده، ويرد ما قصد بذلك تمييع لهوية الإسلامية وتحريفه وتذويبه، والتنازل عن قيمه وتصوراته. لذا يمكن أن تعرف التسامح بأنه: "قيمة تهدف إلى معاملة الآخرين بالرحمة والإحسان والعدل والحكمة، وفق الضوابط الشرعية"[19].

ويجب أن نفرق بين التسامح واللامبالاة التي تعني انعدام الشعور حيال أمر ما. حيث إن عدم المبالاة ليس تسامحًا عن الإطلاق، لأن غير المبالي لا ينكر أو يستهجن ما يراه ويصبر على وجوده ويتحمله؛ وذلك لأنه لا رأي له ولا موقف حيال الموضوع... كما يختلف التسامح عن الانزواء أو امتناع السلبي عن التدخل؛ لأن هذا النوع من السلوك قد يكون منطلقًا من عدم القدرة على فعل الشيء إزاء السلوك غير المرغوب فيه. في حين أن التسامح يعني امتناع المرء القادر على التدخل. [20]

المبحث الثاني

جذور الفكرية لقضية التسامح

المطلب الأول: جذور التاريخية لمصطلح التسامح.

سنتناول في هذا المطلب على العجالة، جذور الفكرية لمصطلح التسامح، وكيف تطور من فكرتها البدائية لتصبح في آخر المطاف قضية في غاية الخطورة بنسبة التدين وبالذات الدين الإسلام الذي لم يتمكنوا إلى الآن لتغيير معالمها أو ذوبانها من نفوس المسلمين، وإن حققوا في ذلك نجاحًا في أوساط بعض شرائحهم.

يحاول بعض الفلاسفة غربيين أن يرجع جذور فكرة التسامح ما قبل عصور الوسطى وبالذات إلى فلسفة اليونانية القديمة، ففي رأي بعضهم كان زينو فانيس[21] -في عصر ما قبل سقراط- من أوائل المفكرين الذين اهتموا بموضوع التسامح، إذ ربط فكرة الحقيقة الموضوعية بالفكرة الجوهرية القائلة بأن البشر غير معصومين من الخطأ، وتتلخص أفكار زينو فانيس عن الحقيقة والمعرفة البشرية في أن معرفتنا تتكون من عدد من العبادات، وهذه العبادات تكون إما صحيحة أو خاطئة، والحقيقة الموضوعية هي التي تناظر محتوى العبادات في الواقع، حتى عندما نعبر عن أكمل حقيقة فإننا لن نعرف ذلك على وجه اليقين، ولما كانت المعرفة- بالمعنى المألوف للكلمة- تعني المعرفة اليقينية فلا يكون ثمة معرفة، لأنه لن يكون هناك سوى المعرفة الحدسية، والتي تعني أن كل شيء ليس إلا انسجامًا محبوكًا من التخمينات، ورغم ذلك فإننا نستطيع في معرفتنا الحدسية أن نتقدم نحو الاقتراب من الحقيقة. [22]

(19) تسامح الغرب مع المسلمين في عصر الحاضر، عبد اللطيف بن إبراهيم الحسين، ط1: (ص 27)، دار ابن الجوزي-1419هـ.

(20) نقد التسامح اللبرالي، محمد بن أحمد مفتي: (ص 13) ركن البحوث والدراسات مجلة البيان، الرياض-1431هـ،

(21) زينو فانيس يبدو من فلاسفة اليونان قبل سقراط، لم أحصل معلومات عنه.

(22) بحثا عن عالم أفضل، كارل بوبر، ترجمة: أحمد مستجير: (ص 237-238)، هيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة-1999م.

ويقول فولتير: "إن مثال التسامح الديني وجدناه عند الإغريق، فقد جمعوا على أديانهم المختلفة أشبه بعرى تربط بينهم وبين بقية البشر، إن ديانتهم كانت بمثابة رابطة للجنس البشري حتى آلهة الأعداء كانت تحترم وتجل"[23].

لكن التسامح الذي نحن بصدده ظهر خلال القرن السادس عشر، ونصف الأول من القرن سابع عشر، حيث كانت أوروبا قد تحولت إلى ساحة الحروب الدينية، نتيجة الانقسامات التي نتجت عن حركة الإصلاح بقيادة مارتن لوثر[24] وحركة الإصلاح المضاد، هلكت أوروبا بسبب الحرب والعنف الذي تم التحريض له باسم الدين، والذي بلغ ذروته في حرب الثلاثين عامًا (1618-1648)، والتي انتهت بعقد الصلح في وستفاليا[25] في عام 1648م[26].

لذا انتشرت فكرة التسامح في أوروبا منذ هذا العصر، فقد ظهر كخشبة الخلاص من أجل حل الأزمة نتيجة هذا الصراع بين أهم مذهبين في المسيحية الأوروبا الكاثوليك والبروتستانت. وكان الحل في رأي مفكري هذا العصر هو الفصل بين الدين والدولة. وهو بصورة أخرى عقيدة العلمانية، إن لم تكن مقصودة في بادية الأمر. فالتعصب والدمار الذي حصل في أوروبا نتيجة تلك الحروب "علما البشر بأقصر السبل الممكنة درس التسامح القاسي"[27].

لكن علينا أن ننتبه إلى نقطتين مهمتين هنا، الأولى: أن فكرة التسامح في جذرها الأصلي أسست من أجل الخروج بالمجتمع من حرب أهلية داخلية، ووجهت من أجل إحداث تماسك اجتماعي داخلي بين فئات مجتمع واحد. أي أن الأساس في كل ذلك كان لترسيخ وتقوية التعايش مع الآخر ضمن المجتمع نفسه، وليس مع الآخر الذي قد يمثل كل الأمم الأخرى.

ففي هذا السياق يدعو جان بودان[28] الملوك والحكام إلى ضرورة الاستعانة بأهل الخبرة ممن لا ينتمون إلى ملتهم، لأن المملكة مكان جميع المواطنين الذين يطيعون القانون رغم اختلاف مللهم ونحلهم، وحيث يتخلى الجميع عن معتقداته من أجل القانون العام. [29]

ولم تكن فكرة التسامح يومئذ تساوي فكرة الحرية الدينية، التي تطورت لاحقًا، والذي يتضمن نوعًا من المساواة بين كل العقائد.[30]

وفي القرن التاسع عشر، تم تطوير فكرة التسامح بشكل يتماشى أكثر مع الفكرة الليبرالية حول التنوير التي تقول بإن الاستقلالية الأخلاقية ضرورية لازدهار الإنسان. وقد قدم جون ستيوارت ميل[31] الحجة الأكثر شهرة في القرن التاسع عشر في الدفاع عن التسامح في كتابه في الحرية (1859). يعتبر ميل في هذا الكتاب أن الحد الصحيح الوحيد للحرية هو الضرر، فيحق للمرء أن يكون حرًا قدر الإمكان، إلا إذا

---

(23) رسالة في التسامح، فولتر، ترجمة: هنريت عبودي، ط1: (ص49)، دار بترا، دمشق-2009م.

(24) هو: مارتين لوثر (1483 - 1546م) راهب أغوسطيني لاهوتي ومفكر وكاتب، بدأ في ألمانيا الإصلاح الديني وانفصل عن الكنيسة في شأن الغفرانات وسلطة البابا والتبتل وإكرام القدسيين؛ نقل التوراة إلى الألمانية فكانت الترجمة حدثًا دينيًا وأدبيًا، وكان مؤسس لفرقة البروتستانتي في ألمانيا. ينظر ترجمته في: حصان طروادة الغارة الفكرية على الديار السُّنية، عمرو كامل عمر، ط2: (ص 266)، دار القمري-1435هـ.

(25) وستفاليا أو ڤستفالن (بالألمانية: Westfalen) وتعني فاليا الغربية، هي مقاطعة ألمانية سابقة كانت مستقلة ذاتيا ضمن إطار الدولة الألمانية. ar.wikipedia.org/wiki/وستفاليا

(26) ينظر: التسامح بين شرق وغرب: (ص 14).

(27) المصدر السابق: (ص 15).

(28) جان بودان (Jean Bodin) 1530-1596، فيلسوف فرنسي يعتبر صاحب نظرية السيادة، ومن فلاسفة المذهب التجاري. وهو كذلك سياسي وعضو برلمان باريس، وأستاذ القانون في تولوز. واشتهر لنظريته عن السيادة. كان بودين من أنصار التسامح الديني، وكان مستشاراً لهنري الرابع ومن المعجبين به. ينظر: حقوق للإنسان بين الشرائع القديمة والمواثيق الدولية الجديدة، هشام باناجه: (ص 266)، بدون دار النشر.

(29) التسامح وثقافة السلم عند بن باديس، الزور أوري بغور: (ص 20)، رواق عربي-2000م.

(30) ينظر: المقالة: قبول الأخر انتحار الذات، أحمد خيري العمري، أرشيف ملتقى أهل التفسير.

(31) جون ستيوارت ميل ولد في عام 1806م، من أسرة أريقة في الأدب، وهو فيلسوف واقتصادي بريطاني، ذو منطق استقرائي وفلسفة تجريبية، وهو من أبرز دعاة مذهب المنفعة. وهو من رواد الفلسفة الليبرالية. توفي ميل في مدينة أفينيون في عام 1873م. ينظر ترجمته في كتابه: عن الحرية، هيتم كامل الذبيدي.

كانت حريته تشكل تهديدًا على رفاه شخص آخر: "يكمن الغرض الوحيد لممارسة السلطة بشكل صحيح على أي عضو في مجتمع متحضر، رغم إرادته، في الحؤول دون إلحاق الأذى بالآخرين"[32].

وبعد كل هذا الطرح يمكن لنا بصفة عامة تحديد ثلاث مراحل لنشأة مفهوم التسامح الديني في أوربا.

المرحلة الأولى: تمثل في مرحلة الخروج على الكنيسة.

المرحلة الثانية: تغيير أوضاع الكنيسة.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة الديمقراطية الحديثة.

وقد بدأت المرحلة الأولى بوجود مجموعات صغيرة انشقت على الكنيسة، لكنها كانت عاجزة عن خلق الظروف الاجتماعية الملائمة لانتصار أفكارها.

أما المرحلة الثانية فتتعلق بتغيير أوضاع المؤسسة الدينية وفشلها في مواجهة المنشقين عليها، مما دفعها إلى ابداء قدر من المرونة إزاء الاختلافات، وقد ساعد على ضعف الكنيسة سعي الدولة لتقليص نفوذها وتجريدها من قوتها الاقتصادية. أما المرحلة الثالثة في تكريس مبدأ التسامح فقد تواكبت مع بدء عملية التصنيع، وما ارتبط بها من تقدم تكنولوجي. فقد ادى التصنيع الى ظهور التخصص وتقسيم العمل، ومن ثم الفصل بين العمل وغرس مبدأ العقلانية، فلم يعد الإنسان يعتمد على الحقائق والمعتقدات الدينية عند التعامل مع مشكلة العمل، حيث سادت الاعتبارات العقلانية عالم العمل.

ولم يقتصر التحول على المجال الاقتصادي فحسب، بل امتد أيضًا إلى النظام الإقطاعي الذي أصبح يتسم هو الآخر بالحياد والموضوعية والعقلانية بدرجة أو بأخرى. ومن ناحية ثانية فقد أدى التقدم التكنولوجي وزيادة الوعي إلى تقليص دائرة المقدس وإضعاف فكرة وجود قوة خارقة تدخل في الحياة اليومية للأفراد. ومن ناحية أخرى فقد ترتب على انتشار التصنيع تحرك إعداد كبيرة من البشر من الريف إلى المدن. مما أدى إلى الاستقلال الاقتصادي للفرد، والاختلاط بأفراد من قوميات وجنسيات مختلفة، وقيام العلاقات على أساس المصلحة المادية الفردية وبالتالي سيادة المفاهيم العقلانية.[33]

ونفهم من ذلك أن مفهوم التسامح بدأ ذا طابع ديني في القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر، ولكن مع تطور المجتمع وما طرأ عليه من عمليات تحديث وما صاحبها من تغييرات وأثار سياسية وثقافة فكرية، اتسع مجال التسامح ليشمل بجانب التسامح الديني كافة أشكال وأنماط الاختلافات الأخرى. وقد ظل مبدأ التسامح ملازمًا لمفهوم الدولة المدنية أو المجتمع المدني الذي يصون الحقوق الطبيعية لأفراده، ويؤسس التقدم الإبداعي في كل المجالات على أساس من حق أفراده في الاختلاف. ولذلك أصبحت الاجتهادات الحديثة تميل بوجه عام إلى توسيع أفاق التسامح، لا لتشمل كل ما هو مخالف روحيًا وأخلاقيًا فحسب، بل كل ما هو مخالف سياسيًا واجتماعيًا.[34]

المطلب الثاني: رواد نظرية التسامح ومؤسسيها.

يجمع أغلب الباحثين بأن عصر التنوير يشكل نقلة تاريخية حاسمة في تاريخ الحضارة الأوربية، إذ كان الانطلاقة الأولى التي تبلورت فيها المباديء والأسس التي لا يزال الغرب يعيش وفقها منذ مائتي سنة وحتى اليوم لا يزال الحديث عن الأنوار ويثير شهية الباحثين.

---

(32) ينظر المقالة التي نشرتها موقع التسامح:
http://tolerance.tavaana.org/ar/content/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B3%D8%A7%D9%85%D8%AD-1

(33) ينظر: التسامح السياسي: المقومات الثقافية للمجتمع المدني في مصر، هويدا عدلي: (ص 87-88)، مركز القاهرة للدراسات حقوق الإنسان، القاهرة-2000م.

(34) التعايش السلمي والتسامح المجتمعي في الموروث الاجتماعي الغربي، فيصل محمد علوي، عبد الله صالح علي خلف: (ص 356)، مجلة الفراهيدي، العدد (22) حزيران-2015م.

إنّ معركة التنوير معركة ضخمة قادها مفكرون وفلاسفة التنوير في أوربا بهدف تحرير بلدانهم وشعوبهم من غطرسة الكنيسة، حيث ناشدوا بحرية العقل وطالبوا بتجديد الفكر وتحريره من العصابات بجميع أشكالها مع ضرورة قبول الآخر المختلف ومحاربة العنف لإحلال التسامح محله. [35]

توماس هوبز (Thomas Hobbes) 1588-1679[36]**:** ولعلّ توماس هوبز يعتبر من الأوائل الفلاسفة التنويريين الذين نادوا بالنظرية التسامح حيث كان يربط بين القوة والتسامح، ويستعين في ذلك بمفهومي "المنفعة والأنانية" ليميز بين العقل والخرافة، وبالتالي بين التسامح والتعصب. كما اخضع هوبز الكنيسة ونظامها الاجتماعي لنوع من النقد الشديد، حاول في إطاره تحديد علاقة الكنيسة بالنظام الاجتماعي القائم. ولذلك اتجه إلى رفض أية تنظيمات اجتماعية تتوسط العلاقة بين الفرد والمجتمع، وحتى في رؤيته بين الحاكم والمحكوم تتضح رؤيته الفردية، فالبشر يتحركون وفقًا لمصالحهم الخاصة دون وسيط بينهم وبين الدولة.[37]

جون لوك (Jhon Lock) 1632-1704: ولد جون لوك في إنجلترا عام 1633م، وبعد تخرجه من جامعة أكسفورد اتصل باللورد شافستبري وهو رجل الدولة. وكان هذه الصداقة سبب لهروبه إلى هولندا، وفي منفاه كتب لوك كتابه "رسالة في التسامح" بتحريض من صديقه. وانتشر كتابه خاليا من اسمه في عام 1689م، وكان يقصد التسامح الديني بمعنى: "إنه ليس من حق أحد أن يقتحم باسم الدين الحقوق المدنية والأمور الدنيوية"، ولهذا "فإن الحكم ينبغي ألا يحمل في طياته أي معرفة عن دين الحق"؛ ومعنى ذلك أن تسامح الديني يستلزم ألا يكون للدولة دين لأن "خلاص النفوس من شأن الله وحده، ثم إن الله لم يفوض أحدًا في أن يفرض على أي إنسان دينًا معينًا. ثم إن قوة الدين الحق كامنة في اقتناع العقل، أي كامنة في باطن الإنسان". [38] بسبب هذه الأفكار هوجم لوك فألف رسالة ثانية في التسامح في سنة 1690، ورسالة ثالثة سنة 1692.

ومهما يكن من الأمر فإن جون لوك يعد من أقوى المدافعين عن التسامح، ونادى بضرورة الفصل بين الدولة والكنيسة، إذ يقول: "فالدولة مهمتها المحافظة على حقوق الأفراد، ولا علاقة لها مطلقًا بخلاص النفوس...[39]، والكنيسة هي مجرد جمعية حرة إرادية ليس لها أن تتدخل في الإيمان... [40]، والأولوية هنا للدولة ومصلحتها القومية، ولذلك يخرج أتباع المذهب الكاثوليكي في بلده من عداد من يجب التسامح معهم، لأنهم خطرون سياسيًا نتيجة اتباعهم للبابا في روما، وكذلك فإن لوك لا يتسامح مع الملحدين، لأنهم يعتبرون خطرًا على المجتمع والدولة."[41]

بيير بِيلْ (Pierre Bayle) 1647-1706[42]: كان من الأوائل الذين دَعَوْا إلى فكرة التسامح؛ لمواجهة التحجر الفكري في المسيحية. وقد قدم بِيلْ أدلة واضحة في كتابه "أرغمهم على الدخول" في معرض دفاعه عن التسامح الديني. وتناول ما نُقل من قول المسيح بالبحث والتدقيق، فقد كان يعتقد بأن هذه الجملة المروية عن المسيح تشكل أساس المسيحية في محاربة مخالفيها والتضييق عليهم. وبهذه الذهنية حارب بِيلْ عقائد المسيحية وفندها.

لقد كان بِيلْ يعتقد أن الإيمان الحقيقي بالمذهب هو عبارة عن تصور وانطباع شخصي عن الرب. وبما أن العقل نفسه لا يملك القدرة الكافية في التيقن والاطمئنان إذاً لا محيص عن العمل بأصالة فقدان اليقين. ومن هنا ينشأ اللجوء إلى فكرة التسامح.

---

(35) خطاب التسامح في فكر الأنوار: (ص 83).

(36) توماس هوبز (1588 - 1679) يعد توماس هوبز أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر بإنجلترا وأكثرهم شهرة خصوصا في المجال القانوني، حيث كان بالإضافة إلى اشتغاله بالفلسفة والأخلاق والتاريخ، فقيها قانونيا ساهم بشكل كبير في بلورة كثير من الأطروحات التي تميز بها هذا القرن على المستوى السياسي والحقوقي، كما كان ماديا مغاليا في ماديته. ينظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن البدوي، ط1: (2/554-556)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-1984م.

(37) التعايش السلمي والتسامح المجتمعي في الموروث الاجتماعي الغرب: (ص 358).

(38) رسالة في التسامح، جون لوك، ترجمة منى أبو سنه، ط1: (ص: 7)، المجلس الأعلى للثقافة-1997م.

(39) نفس المصدر: (ص 26).

(40) نفس المصدر: (ص 27).

(41) التعايش السلمي والتسامح المجتمعي: (ص 358).

(42) التعايش السلمي والتسامح المجتمعي: (ص 358).

وحسب رأي بِيلْ لا توجد مبررات لتعالي الإنسان عن معرفة الحقيقة وإدراكها. وبما أن البشر مع اختلافهم في العادات والطباع يريدون الوصول إلى الحقيقة فقد يختص بعضهم بمعرفة بعض الحقائق، دون غيرهم. فالعقل يحتمل الصحة والخطأ، وما أكثر الغموض والاستتار في معرفة الأحكام الحقيقية. نعم، كل فرد يمكنه العمل بما قد توصل إليه، ولا يجوز لأحدٍ التضييق عليه فيما يتبنّاه من اتجاه. وعلى هذا أصبح ضمير الفرد هو المصدر الوحيد في معرفة الحقائق، بعنوانه الملاك الأول والأخير في ذلك.[43]

فرانسوا ماري فولتير (Francois Marie Voltaire) 1694-1778م[44]: من أهم الفلاسفة الذين اقترنت أسماؤهم بالدعوة إلى التسامح، كتب كتاب المشهور "الرسالة في التسامح"، وكان ذو اضطهاد للأفكار والمعتقدات، ومن أقوى المنادين بحرية الفكر التي لا تحدها حدود، فإنه جعله حدودًا للتسامح لا يتعداها، عندما يتعلق الأمر بشؤون الدولة والساسة فهو يقول بضرورة حصر الوظائف العامة والمراتب الرفيعة فيمن يعتنقون دين الدولة، لأنه يعتقد أن الدين ضرورة لضبط الشعب. ويلخص جون هرمان راندال[45] هذه المسألة بقوله: "كان عصر التنوير مستعدًا للتسامح في أمر الاختلاف الديني لا السياسي".[46]

فاشتهر فولتير بالدعوة إلى السلام ومهاجمة الحروب الدينية أو الدنيوية، وشجب التعصب الديني والفلسفي، القوة والعنف في تنظيم العلاقات بين الأفراد وبين الدول، وأن القضاء على سلطة الكهنوتية التي تعيش في أرضها جذور التعصب هي الخطوة الأولى في بناء مجتمع سليم.[47]

المطلب الرابع: الأسس الفكرية للتسامح الشائع في الغرب

مما لا شك فيه أن للعقيدة والأخلاق والأعمال أثرًا في النفوس، سواء أكانت صحيحة أم الباطلة، أراد الإنسان أم لم يرد، فهو يعيش باحثًا عن ذاته، ومحققًا لوجوده في الحياة، التابع من معتقداته الدينية، وقيمه الخلقية، وسلوكياته العلمية. ولهذا يمكن القول بأن التسامح في الغرب قد انطلقت عبر عدة الأسس من أهمها ما يلي:

أ-الفردية: يبقى الفرد وما يتعلَّق به محوراً لنظرية التسامح، بحيث يمكن القول: إن الفردية هي نواة التسامح الدينية والوجودية المعرفية. ومن هنا تتّضح مسألة التحمُّل الفردي. وعليها يكون الفرد مرجحاً على المجتمع، وأكثر مصداقية من الأنظمة والأسس الاجتماعية. ففي رأي بعضهم، كـ "جون لوك" أو "جون ستيوارت مِل" الأكثر تحمساً للموضوع، الفردُ سابقٌ على المجتمع بالمرتبة الزمنية، وعليه "فإنّ حقوقَه ومطالبه تحظى بالأولوية من الناحية الأخلاقية على المجتمع، وإنّ الوجودية المعرفية في الفردية تضمن المبنى الفلسفي للفردية الأخلاقية والسياسية"[48].

فهذا يعني أن الفرد حر في أفعاله، ومستقل في تصرفاته دون أي تدخل من المجتمع أو الدول أو غيرها، فوظيفة الدولة حماية هذه الحرية، وتوسيعها وتعزيز الحقوق، وأن يعطي الأفراد أكبر القدر من الضمانات في مواجهة التعسف والظلم الاجتماعي.[49]

أن الدولة محايدة فيما يتعلق بالاعتقاد الديني، ولأن الحرية تقتضي عدم القطع واليقين لأنه لا يمكن الوصول للحقيقة إلا بواسطة العقل من خلال التجربة، وحقيقتها إلغاء للالتزام الديني، لأنه أعطى الإنسان الحق في الاعتقاد ما شاء وإعلانه ويجب على المجتمع قبوله وعلى الدولة أن تكفل هذا الحق.[50]

---

(43) إشكاليات في المبادئ الفكرية والتأثيرات العملية، الشيخ علي أكبر نوائي، ترجمة: محمد عبد الرزّاق، نشرته موقع: http://nosos.net؛ وينظر: أضواء على التعصب: (ص 181)؛ موسوعة الفلسفية: (400/1)

(44) نفس المصدر: (ص 27).

(45) جون هرمان راندال، ولد في ولاية ميشيغان في أمريكا عام 1899، درس في جامعة كولومبيا ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة، ثم قام بتدريس الفلسفة في نفس الجامعة. له عدة المؤلفات غير هذا منها: "الابتعاث وتاريخ الأفكار الحديث"، توفي في سنة 1980. ينظر: تكوين العقل الحديث، جون هرمان راندال، الترجمة: جورج طعمه، ط1: (ص 7)، دار الثقافة، بيروت.

(46) مفاهيم فلسفية التسامح، رمضان بسطاويس، ط1: (ص93-94)، مكتبة الدار العربية للكتاب، القارة-2018م.

(47) قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ويل ديورانت، الترجمة فتح الله محمد المشعشع، ط6: (ص 196-197)، مكتبة المعارف، بيروت-1988م.

(48) ينظر: مفاهيم فلسفية التسامح: (ص 35).

(49) ينظر: حقيقة اللبرالية وموقف الإسلام منها، سليمان بن صالح الخراشي: (ص 20-21)، بدون ذكر الدار-1429-

(50) ينظر: المصدر السابق: (ص 24).

ب-التعدُّدية: يبني أصل التعددية على نفي أفضلية أي رأي من الآراء. وعلى ذلك لا يمكن لأحدٍ ادعاء توصله إلى الحقيقة، دون غيره؛ لأنها متشعبة، ويمكن أنْ تصدق على العديد من العقائد والآراء. فلا يوجد هناك دافع إلى التزمُّت والتعصُّب إطلاقاً، ولا ترجيح عقلي أو استدلالي لعقيدةٍ على أخرى، إلا بملاك المنفعة التجريبية، وهو ضعيف ونادر. والأوْلى إنهاء الخلافات الاجتماعية عن طريق التسامح، فيتحمَّل الجميع بعضهم بعضاً؛ ليكتسب المجتمع المدني صورة منسجمة في الظاهر.(51)

ونستنتج مما سبق أن وجود التسامح في المجتمع حسب رؤية الغريبة يتطلب شروطًا محددة وهي:

أولاً: وجود مجتمع تعددي قائم على تأكيد الحق في الاختلاف مع ضمان حقوق المختلفين، وعدم إنكار آخرية الآخر، وسعي بأي وسيلة كانت لتغييرها.

ثانيا: ضرورة قيام مجتمع مدني لا ديني على تعددية لتسود فيهم قيم التسامح الليبرالي.

ثالثا: ضرورة وجو الدولة الديموقراطية العلمانية بوصفها نظامًا للحياة لتوفير الضمانات الأساسية لقيام مجتمع تسود فيه روح التسامح اللبرالي. (52)

ووفقاً لهذه الفكرة الليبرالية للتسامح فلن تبقى هناك المقدَّسات ولا ثوابت الدينية والأخلاقية، لا يسمح فيها للعقيدة الولاء والبراء، كما لا يمكن دعوة الناس إلى التزام بمبادئ الدين ولا إلى محاسن الأخلاق. فالتسامح الليبرالي المعاصر يقول: "قدموا أولوياتنا على أولوياتكم، وإلا ستدرجون في قائمة العنف والإرهاب، كحركة طالبان في أفغانستان".(53)

ج-الليبرالية: الليبرالية هي نظرةٌ شاملة للحياة والوجود والإنسان، ومفادها التحرُّر في جميع جوانب الحياة، أي التخلُّص من جميع تلك القيود المحيطة بالفرد، والليبرالي هو الشخص الذي تحرر من تلك القيود. (54)

وهناك تأثيرات واضحة تركتها النزعات الليبرالية على جميع الاتجاهات الغربية المعاصرة ومنها نظرية التسامح. وهنا تكمن نقاط القوّة والضعف في الليبرالية المعاصرة. فجميع الفرضيات المتداولة في الغرب اليوم في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ذات طابع ليبرالي، قبل أن تكون مسيحية أو إقطاعية أو اشتراكية أو فوضوية.

والسمة البارزة لتلك الفرضيات أن ليس لها نزعة سياسية. ولا تختصر تلك الفرضيات على الجانب السياسي فقط، كما هو الحال في سائر المذاهب السياسية، بل تكتسب نزعات وجودية معرفية فيما يخص ماهية العالم والإنسان، والتي تشكل حجر الأساس في بنائها التكويني. فقد باتت الليبرالية من أهم مواضيع الرؤية الكونية عند الناس، فحظيت باهتمام أكثر من التحفظ والالتزام أو الاشتراكية الثورية، لذلك نرى أن الليبرالية أصبحت ملاكاً لأغلب الذهنيات والأفكار في النشاط الغربي.

وعليه يمكن ملاحظة نفوذ الليبرالية في شتّى المجالات، وعلى مختلف الأصعدة، فهي كانت أطروحة لحرّية الإرادة واختيار العمل، ممّا يدور في المجتمع، أي ليس بإمكان أحد فرض آرائه على الآخر. (55)

ففي ظل المجتمع الليبرالي كهذه يصبح التسامح القائم على مفهوم: "عش ودع غيرك يعيش"، فهذا كله مبني على حق الجميع في تبني ما يشاؤون والاعتراف بحق المصالح والرؤى المتعارضة في الظهور والبقاء. (56)

ومن أهم عبارات التسامح التي تنسب إلى فولتير: "قد أختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد من أجل الدفاع عن رأيك؛ أنا أمقت ما تكتب ولكنني على استعداد تام لأن أضحي بحاتي من أجل أن تستمر في الكتابة. (57)

(51) ينظر: المصدر السابق: (ص 38).
(52) نقد التسامح اللبرالي: (ص 44-45).
(53) حقيقة اللبرالية وموقف الإسلام منها: (ص 38).
(54) مفاهيم فلسلفية التسامح: (ص 35).
(55) مفاهيم فلسلفية التسامح: (ص 35).
(56) نقد التسامح اللبرالي: (ص 47).
(57) فلسفة التسامح عند فلتر، نبيلة خالدي: (ص 53)، رسالة علمية-2016م.

لقد رأي فولتير نفسه قائدًا لحملة صليبية ضد المسيحية المتعصبة، يقول فولتير: "وحدوا أنفسكم وأقهروا التعصب والأوغاد، واقضوا على الخطب المظللة والسفسطة المخزية والتاريخ الكاذب...، لا تتركوا الجهل يخضع العلم، سيدين لنا الجيل الجديد بعقله وحريته"[58].

جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill) 1806-1873م[59]: وقد طور جون ستيوارت ميل مفهوم التسامح في كتابه المعنون "حقيقة الحرية" سنة 1859م، إذ يرى أن التسامح يمتنع معه الاعتقاد في حقيقة مطلقة، أي تمتنع معه الدوجماطيقية، ويرى أن الحرية الدينية تكاد لا تمارس ألا حيث توجد اللامبالاة الدينية. وحتى في البلدان المتسامحة فإنه ثمة تحفظات على التسامح لدى معظم المتدينين وبذلك تعد أفكار ميل عن التسامح تطورًا لأفكار جون لوك، حيث نقلها من المجال الديني إلى المجال الأخلاقي الاجتماعي في سياق من سياقاتها، خصوصًا ما طرحته هذه الكتابات عن قضية العلاقة بين القانون والأخلاق، وما ينبغي أن تقترن به هذه العلاقة من إبعاد متميزة لممارسة التسامح على المستوى الاجتماعي. [60]

فميل يطلق الحرية إلى أقصى درجة يكفل معها الانسجام الاجتماعي حيث يقول: "إن الحرية لا يحدها شيء سوى الإضرار بالأخرين"... وطالما كانت الحرية الفردية لا تتعارض مع حرية الغير ولا تدعو الغير إلى ارتكاب جرائم، فإنها تجب ألا تكون مقيدة بأي قيد: "إن الجزء الوحيد من سلوك الإنسان، الذي يكون مسؤولاً عنه تجاه المجتمع، هو ذلك الذي يتعلق بالغير. وأما الجزء الذي يتعلق بذاته فهو فيه صاحب المطلق واستقلاله فيه مكفول. إن الفرد ذو سيادة كاملة على ذاته، وعلى جسمه وعلى عقل".[61]

فبعد هذا الاستعراض الموجز والمقتضب لأشهر الرواد لفكر التسامح، يمكن لنا ملاحظة تطور هذه الفكرة وكيف وصلت في نهاية المطاف لتكون ضرورة الاجتماعية على الأساس الحرية الفردية والعلمانية.

فالتسامح بهذا الوصف قائم على التحرر من القيود الدينية وإرساء دعائم مجتمع لبرالي علماني تنفصل فيه السياسة عن الدين. [62]

المبحث الثالث: منطلقات الشرعية للتسامح

التمهيد:

من المسلم به أن التسامح في الإسلام لا يعني التساهل والتمييع للهوية الإسلامية، والتنازل عن قيمه ومبادئه وتصوراته إذ من الواجب أن تبقى الثوابت لها اعتبارها، في حين أن الإسلام يمد سبل التعاون الفعال مع الآخرين والتواصل معهم معبرًا عن صدق مبادئه وواقعيتها، وشمول نظامه وفاعليته.

كذلك فإن التسامح في الإسلام لا يعني تسامح الذل والهوان، أو الخضوع للظلم، أو الاستكانة تجاه الظالمين. كما أننا حينما نتكلم عن التسامح، فهذا لا يعني أننا نذهب إلى قول بعدم المبالات، حيث لا يمكن أن يتصور أن المؤمن الحقيقي يمكنه أن يجلس بكل هدوء مسترخيًا لا يقوم بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير، ولا يمكن أن يراقب الآخرين يذهبون إلى جهنم وهو لا يبالي!

إذًا ففي هذا المقام سنبين على وجه موجز التسامح في منظور الإسلامي، –والذي هو جزء من طبيعة هذا الدين وليس نتيجة الصراعات الداخلية كما حدث مع النصارى-، أدلته ونماذج من تسامح المسلمين مع غيرهم.

المطلب الأول: الإسلام دين التسامح.

التسامح من مبادئ الإسلام الثابتة، بل هو ركن في العلاقات الإنسانية بين المسلمين أنفسهم، بل وبين المسلمين وغيرهم، ولم يترك الإسلام تحديد معالم التسامح لاجتهادات علماء المسلمين، بل حددها الله تبارك وتعالى في كتابه، كما حددها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله. قال الله تعالى في تحديد العلاقة مع

---

(58) قصة الفلسفة: (ص 296).

(59) فيلسوف إنجليزي برز في المنطق، وهو من أكبر دعاة مذهب المنفعة، كان له مساهمات في الفكر والمنطق والسياسة، وألف مجموعة من المؤلفات، منها "مبادئ الاقتصاد السياسي" وكالتاب "تحليل العقل الإنساني" وغيرها. موسوعة الفلسفة: (466/2).

(60) التعايش السلمي والتسامح المجتمعي: (ص 360).

(61) موسوعة الفلسفة: (472/2).

(62) نقد التسامح اللبرالي: (ص 29).

غير المسلمين: ﴿يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]، ونلحظ هنا تعبير القرآن عن قمة التسامح بلفظ البر "تبروهم" وهو مصطلح خاص بالأقربين مثل الوالدين والأقارب، كما أردف هذه الكلمة بكلمة "القسط" وهو العدل، وختمت بأن الله يحب هؤلاء المقسطين، وأساس مبدأ التسامح في الإسلام هو كرامة الإنسان، وهل هناك أعظم من تحقيق هذا المعنى من تسامح النبي عليه السلام، ولقد كان لنا في رسول الله أسوةٌ حسنة في ترسيخ معنى التسامح مع الغير ولو أساء القول والفعل، فقد لقي من أذى الناس الكثير؛ فصبر ثم عفا وغفر وصفح مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]. (63)

ولقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إشاعة جو التسامح والسلام بين المسلمين، وبينهم وبين غيرهم من الأمم، واعتبر ذلك من مكارم الأخلاق، فكان في تعامله مع المسلمين متسامحاً حتى قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، وكان مع غير المسلمين ينطلق من هذا المبدأ العظيم ليكرّس قاعدة التواصل والتعاون والتعارف بين الناس، ولتكون العلاقة الطيبة الأساس الذي تُبنى عليه علاقات ومصالح الأمم والشعوب، وحتى مع أعدائه الذين ناصبوه العداء كان متسامحاً إلى حد العفو عن أسراهم واللطف بهم والإحسان إليهم.

فها هو أثناء عودته من الطائف، وبعد أن أدموه وأغروا به سفهاءهم وغلمانهم، وبعد أن طردوه من قريتهم، وأساؤوا معاملته، يأتيه ملك الجبال يقول: "مُر يا محمد". فيقول رسول الله: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا"(64). لقد كان ملك الجبال ينتظر منه إشارة ليطبق عليهم الأخشبين ويغرقهم في ظلمات الأرض فلا ينجو منهم أحد، ولكن الرحمة في قلبه وخُلُق التسامح الذي تربّى عليه دفعه إلى الاعتذار من ملك الجبال، وقال قولته الشهيرة التي تنمّ عن مسؤولية عظيمة وخُلُق فاضل. (65)

لقد ورد في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الكثير من التوجيهات الداعية إلى الرفق، ومقابلة السيئة بالحسنة، والإعراض عن الجاهلين، إذ إن لإسلام لا يقر المواقف الوقتية التي تصنعها انفعالات النفس، وتغلب عليها العاطفة، كما لا يقر حب الاستغلاب والقهر والانتقام؛ لهذا تمثل الآية القرآنية ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126]، قاعدة مسلكية في تعامل المسلم مع غيره، وهو تعامل يغلب فيها العفو والمسامحة على مقابلة العقاب بالمثل.

صحيح أن الباحث في القرآن لن يجد الفعل (سمح) ومشتقاته فيه، ولكن سيجد فيه كلمات وردت في معناه، كالصفح والعفو، والسلام...ونحوها، في آيات كثيرة، وفصَّل العلماءُ مراد هذه الآيات، كقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمَّنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، فقوله: {خُذِ الْعَفْوَ} دخل في صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطعين، ودخل في قوله: {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار، وفي قوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم.(66)

وقول السعدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: 34]، لمراد من الآية: إذا أساء إليك أعداؤك بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإنَّ ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك أنك تخف الإساءة عنك في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، وليتصف العافي بصفة الإحسان".(67)

(63) مستفادة من مقالة: التسامح أصل في الإسلام وضرورة اجتماعية، لشيخ عجيل جاسم النشمي، منشورة في جريدة الرأي الكويتية.
(64) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين... ح(3231)، دار طوق النجاة-1422هـ؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى... ح(1795)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(65) مقتبس من مقالة: خلق التسامح في ديننا العظيم، منشور في موقع المسلم.
(66) تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، ط2: (344/7)، دار الكتب المصرية، القاهرة-1384هـ.
(67) تفسير السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، ط1: (ص 558)، مؤسسة الرسالة-1420هـ.

وهناك الكثير من الأحاديث التي ووردت في السنة النبوية المطهرة، التي تدعو للتسامح، وتؤكد عليه، منها: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيهِ النَّارُ، عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَينٍ سَهْلٍ"[68]. والحديث أفاد بأن النار تحرم على كل سهل طلق حليم لين الجانب، وكل من يقضي حوائج الناس، سمح البيع وسمح الشراء.[69]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[70].

وبعد ذكر هذه النصوص يمكن أن نقول: أن لسَّماحة والرفق، ومقابلة السيئة بالحسنة مبدأ إسلامي أصيل، يقرّه ديننا، ويدعو إليه، ويحارب التعصب وانفعالات النفس التي لا تفيد.

المطلب الثاني: من صور التسامح الإسلامي.

لا شك أن المتصفح في كتب السير والتاريخ سيلاحظ وبجلاء تطبيق مبدأ التسامح لدى المسلمين، والتي تظهر في صورتها المتكاملة في تعامل المسلمين مع غيرهم من أهل الملل والأديان، وسنحاول أن نذكر في هذا المطلب شيء من تطبيقات هذا المبدأ عبر التاريخ ككل متركزا على محطات التالية:

1- حرية الاعتقاد والعبادة لغير المسلمين ومنع الإكراه في الدين: يعتقد المسلمون أن دينهم هو الحق المبين، وأن ما عداه ديانات إلهية حُرفت ثم نُسخت بالإسلام، أو ضلالات وتخبطات أوجدها البشر جهلاً منهم بحقيقة الدين والمعتقد أو بغياً وهوى، وأن كل ذلك يحيق بأصحابه عذاب النار.

وقد أشفق المسلمون على البشرية من هذا المصير المؤلم، وعملوا جهدهم على استنقاذهم منه ومن دياجير العيش في ظلال الكفر، ولم يدخروا جهداً في استمالة الأمم والشعوب التي اختلطوا بها إلى الإسلام، لكن مع ذلك فقد حفظ الإسلام حقوق الذين أرادوا بقاء على دينهم من أهل الكتاب والمجوس، بل وقبلوا أن يكونوا مواطنين لدولة الإسلام –وهم يعطون الجزية-، وقد كلف الإسلام لهم الحرية العقيدة والعبادة بل وإقامة شعائرهم في قراهم وكنائسهم.[71] وهذا كله عملا بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]

وشاهد على ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين عمر بن خطاب رضي الله عنه، أنه ينما مر بعجوز من النصارى عرض عليها الإسلام قائلا: "أسلمي أيتها العجوز تسلمين الله بعث محمدا بالحق". قالت: "أنا عجوز كبيرة والموت إليّ قريب"، فقال عمر: "اللهم اشهد وتلا قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[72].

ليس هذا فحسب، بل لقد فرض المسلمون في فترة من الفترات على كل راغب في الدخول في الإسلام أن يمثلوا أمام القاضي، ويعلنوا أن إسلامهم لم يكن نتيجة لأي ضغط، وأنهم لا يهدفون من وراء ذلك إلى كسب الدنيوي. [73]

2- عصمة دماء غير المسلمين وأموالهم وأعراضهم: أوجب الإسلام على أتباعه لغير المسلمين ما يتضمَّن حماية دمائهم وأرواحهم، وحماية أعراضهم وأموالهم أيضًا، فاتَّفق العلماء على عصمة دمائهم وأرواحهم، كعصمة أعراضهم وأموالهم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151]، وقوله عز وجل: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32]، ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مَن قتَل مُعاهَدًا، لم يرَح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا"[74]، والمعاهَد كما

(68) أخرجه الترمذي في سننه، ح(2488)، دار الغرب الإسلامي، بيروت-1998م؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ط1: (611/2)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض-1422هـ.

(69) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحيم المباركفوري: (160/7-161)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(70) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار: ح(3477).

(71) المنتقى شرح موطأ مالك، أبو الوليد الباجي، ط1: (١٧٢/2)، مطبعة السعادة-١٣٣٢هـ؛ حقوق غير المسلمين وواقعهم الحالي في البالد الإسلامية، علي الطيار، ط2: (ص 142)، مكتبة الملك فهد الوطنية-1427هـ.

(72) تفسير القرطبي: (280/3).

(73) دفاع عن الإسلام، لورا فيشيا فاغليري، ط5: (ص 35-36)، دار العلم للملايين-1981م.

(74) صحيح البخاري: أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم: ح(2995).

قال ابن الأثير رحمه الله: "أكثر ما يطلَق على أهل الذمة، وقد يطلَق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترْك الحرب"[75].

ويحمي الإسلام عِرْض غير المسلمين -سواء أكانوا الذمين، أم معاهدين أم المستأمنين-وكرامتهم، كما يحمي عِرْض المسلمين وكرامتهم، فلا يجوز لأحد أن يسُبهم أو يتّهمهم بالباطل، أو يشنّع عليهم بالكَذِب، ويذكرهم بما يكرهونه، في أنفسهم، أو أنسَابهم، أو خُلُقهم، أو خَلْقهم، أو غير ذلك مما يتعلّق به. لأن المسلم إن فعل ذلك، فقد ضيع ذمَّةَ الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام. [76]

3- حفاظ على حقوقهم التي صانها الإسلام، ومعاملتهم بالحسنى: لقد أقرَّ الإسلامُ لغير المسلمين حقوقًا، وألزم أتباعَه القيام بها على أتمه وأحسنه، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوةٌ حسنة بهذا الصدد؛ فهو الرحمة المهداة، والنِّعمة المسداة، لقد تعامَل صلى الله عليه وسلم مع جميع غير المسلمين من المشركين والمجوس وأهل الكتاب من النصارى واليهود المعاملةَ الحسنة، التي تَحار منها العقول؛ فقال صلى الله عليه وسلم: "لا يرحم اللهُ مَن لا يرحَم الناس".[77] وكلمة (الناس) لفظة عامة تشمل كل أحد، دون اعتبار لجنس أو دِين؛ قال ابن بطَّال: "فيه الحضُّ على استعمال الرحمة لجميع الخَلْق، فيدخل المؤمن والكافر". [78]

وقد ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي من الوعيد الشديد على الظلم وعدم القيام بالعدل والقِسْط، ولا سيما إذا كان الظلم يتعرَّض له غير المسلمين من أهل الذمة والعهد والأمان، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ألا مَن ظلم مُعاهدًا، أو انتقصه حقًّا، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طِيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة".[79]

4- حق غير المسلمين في العمل والتجارة: لقد أمر الإسلام أتباعه أن يتعاملوا مع غير المسلمين معاملة قائمة على الرِّفق والسهولة والسماحة في جميع أمور الحياة وشؤونها؛ من البيع والشراء، والأجرة والكراء؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "رحِم الله رجلاً سَمْحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى"[80]، وهذا النص يشمل التعامل مع المسلم وغير المسلم، وفيه الحضُّ على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق، وترْك المشاحة، والحض على تَرْك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم[81]، قال الإمام أحمد رحمه الله: "إذا ركب القوم في البحر، فاستقبلهم فيه تجار مشركون من أرض العدو ويريدون بلادَ الإسلام، لم يعرضوا لهم، ولم يقاتِلوهم، وكل من دخل بلاد المسلمين من أرض الحرب بتجارة بويع، ولم يسأل عن شيء"[82]، فلغير المسلمين حرية العمل والكسب، بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين. فقد قرَّر الفقهاء أن أهل الذِّمة، في البيوع والتجارات وسائر العقود والمعاملات المالية، كالمسلمين، ولم يستثنوا من ذلك إلا عَقْد الربا؛ فإنه مُحرَّم عليهم كالمسلمين، يتَمتَّع الذميون بتمام حريتهم، في مباشرة التجارات والصناعات والحِرَف المختلفة، وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين في شتى الأزمان[83].

مسألة: نماذج من تسامح المسلمين مع غيرهم.

نماذج في التسامح المسلمين مع غيرهم عبر التاريخ كثيرة جدًا، لا يمكن أن تستعرض في مثل هذا البحث، لكن سأحاول ذكر بعضها مراعتا لاختصار:

(75) فيض القدير، المناوي، ط1: (6/ 139)، المكتبة التجارية الكبرى-1356ه.
(76) الفروق للقرافي: (14/3)، عالم الكتب.
(77) الفروق للقرافي: (14/3)، عالم الكتب.
(78) الفروق للقرافي: (14/3)، عالم الكتب.
(79) الفروق للقرافي: (14/3)، عالم الكتب.
(80) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع: ح(2076).
(81) فتح الباري، ابن الحجر العسقلاني: (307/3)، دار المعرفة، بيروت-1379هـ.
(82) الشرح الكبير على متن المقنع، ابن قدامة المقدسي: (564/10)، دار الكتاب العربي.
(83) التعامل مع الآخر: (ص 108-109).

أ. جاء الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ادع الله على ثقيف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اهد ثقيفًا". قالوا: يا رسول الله ادع الله عليهم فقال: "اللهم اهد ثقيفًا" فعادوا وأسلموا. [84] فوجدوهم من صالحي الناس إسلامًا ووجدوا منهم أئمة وقادة. [85]

ب. قد كتب النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران أماناً شمل سلامة كنائسهم وعدم التدخل في شؤونهم وعباداتهم، وأعطاهم على ذلك ذمة الله ورسوله، يقول ابن سعد: "وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم: "أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، من بيعهم وصلواتهم ورهبانهم، وجوار الله ورسوله، لا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهانته"[86].

ت. الخليفة عمر بن الخطاب كتب لأهل القدس العهدة العمرية، وفيها: "بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، ألا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم... وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين"[87].

ث. في خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عدي بن أرطاة: "وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه"[88].
وهذا لون من السماحة في المعاملة والعدل لا يعرف له وجود إلا في الإسلام، لأنه قائم على احترام الإنسانية ومعرفة حقوقها.

ج. وفي عهد الرشيد كانت وصية القاضي أبي يوسف له بأن يرفق بأهل الذمة حيث يخاطبه بقوله: "وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم"[89].

ح. لما فتح صلاح الدين القدس بعد معركة الحطين أعطى الأمان لجميع الصليبيين أن يخرجوا إلى ديارهم ومعهم أموالهم وأمتعتهم، ولم يتعرض لأحد حتى هرقل بطرق بيت المقدس غادر المدينة ومعه كثير من الذهب والفضة وخلفه عربيات تحمل النفائس، فقيل لصلاح الدين أن يأخذ ما معه يقوي به المسلمين، فقال: لا أغدر به". وهذا يختلف عن سلوك الصليبيين عندما استولوا على المدينة سنة 1099م فذبحوا كثير من المسلمين بعد أن أعطوا الأمان، حتى يقول ابن العبري وهو مؤرخ مسيحي: قتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا". [90]

بمثل هذه المعاملة ساد المسلمون الأوائل وكانت معاملتهم محط إعجاب مخالفيهم فشهدوا لهم بالسمو في أخلاقهم والتسامح في معاملتهم، ومن هذه الشهادات:

يقول دي لاسي أوليري (De Lacy O'leary) [91]: "إن التاريخ أوضح –بما فيه الكفاية، أن أسطورة المسلمين الذين انساحوا في العالم ينشرون الإسلام بحد السيف، واحدة من أسخف الخرافات التي ظل المؤرخون الغربيون يرددونها"[92].

---

(84) سنن الترمذي، المناقب، باب في ثقيف وبني حنيفة: ح(3942)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وضعف هذا الحديث الألباني في ضعيف سنن الترمذي، ط1: (ص 527)، المكتب الاسلامي-1411هـ.

(85) نظر: تاريخ المدينة، ابن شبة، ط1: (98/2)، دار العليان-بريدة.

(86) الطبقات الكبرى ابن سعد، محمد عبد القادر عطا، ط1: (1/ 204)، دار الكتب العلمية، بيروت-1410هـ.

(87) تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، ط1: (609/3)، دار التراث، بيروت-1387هـ.

(88)كتاب الأموال، أبو عُبيد القاسم بن سلاَّم، تحقيق: خليل محمد هراس: (ص 57)، دار الفكر، بيروت.

(89) الخراج، أبو يوسف، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد: (ص 138)، المكتبة الأزهرية للتراث.

(90) رجال لهم التاريخ، أسامة حسن، ط1: (ص 56)، دار الأمل-1419هـ.

(91) دي لاسي أوليري (1872 - 1957م)، هو مستشرق بريطاني وكان من المستشرقين المتطرفين.

(92) De Lacy O Leary, Arab Thought and its Place in History, p.8 نقلا من الكتاب: التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب: (ص 26).

يقول آرثر غراي ليونارد (Arthur Gray Leonard)[93]: "إني أجد نفسي مجبرًا على الاعتراف بأن محمد يرفض ولا يقبل العنف في الدين".[94]

ويقول غوستاف لوبون (Gustave Le Bon)[95]: "فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينًا سمحًا مثل دينهم"[96]. ويتحدث عن صور من معاملة المسلمين لغير المسلمين فيقول: "وكان عرب إسبانيا خلال تسامحهم العظيم يتصفون بالفروسية المثالية فيرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى ذلك من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبا منهم مؤخرا"[97].

ويقول المستشرق ديورانت (Will Durant)[98]: "لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرًا في البلاد المسيحية في هذه الأيام"[99].

يقول مانابندرا ناث روي (Manabendra Nath Roy)[100]: "الخلفية التاريخية للإسلام والظروف الاجتماعية التي نشأ فيها طبعته بطابع التسامح الذي قد يظهر للعين غير المدركة لا يتفوق مع روح التعصب لتي اعتدنا تقليديًا أن نربطها بالإسلام، ولكن (لا إله إلا الله) وحدها تخلق التسامح"[101].

ويقول بول فندلي وهو عضو سابق في الكونجرس الأمريكي: "على المسلمين الإعلان جهرًا عن هويتهم الإسلامية والبحث عن وسائل تمكنهم من عرض حقيقة دينهم على غير المسلمين... ولا يجدر بهم انتظار حدوث أزمة كي يعلموا الآخرين بحقيقة دينهم... لا بد للمسلمين أن يجاهروا بإسلامهم مجاهرة يكون سلوكهم الحسن معها وإنجازاتهم المجيدة سبيلاً للتعرف بالإسلام".[102]

إن عظمة هذا الدين لا تخفى إلا على من جهل حقيقة الإسلام أو عميت بصيرته عنه أو كان به لوثة من هوى أو حقد مقيت، وإلا فإن سماحة الإسلام في المعاملة وتيسيره في كل أموره، ظاهر بأدنى تأمل لمن طلب الحق وسعى إلى بلوغه والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

المطلب الرابع: ضوابط لتسامح.

لا شك أن مصطلح التسامح –كما سبق أن بينا- من الألفاظ والمصطلحات ذات مضامين فضفاضة، أو ربما أحيانًا تكون معناها غامضًا، فقد يستعملها بعض المسلمين غير المدركين لمفهومها فيقعون في المحاذير الشرعية بأن ينسبوا على الإسلام ما ليس منه، أو يستعملها الأعداء مستغلين الفرص في نشر الدعوات الهدامة في عالم الإسلامي، لذا ينبغي أن نبين ضوابط للتسامح الإسلامي ليزول اللبس وأن لاّ يلصق به ما ليس منه.

إن التسامح الإسلامي لا يكون على حساب إضعاف نميز المسلم من تصوره الاعتقادي ونظامه الاجتماعي.

---

(93) آرثر غراي ليونارد (1865 – 1932م)، كان باحثًا أمريكيا، وجيولوجيا ومربيا.

(94) Major Arthur Glyn Leonard, Islam her moral and Spiritual Value, p, 72 نقلا من الكتاب: التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب: (ص 26).

(95) غوستاف لوبون (1841-1931م)، كان طبيب ومؤرخ فرنسي، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. ينظر: حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ط3: (ص 13)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-1399ه.

(96) المصدر السابق: (ص 720).

(97) المصدر السابق: (ص 344).

(98) ويليام جيمس ديورانت William James Durant (1885-1981)، فيلسوف، مؤرخ وكاتب أمريكي من أشهر مؤلفاته كتاب قصة الحضارة والذي شاركته زوجته اليهودية أريل ديورانت في تأليفه لاسيما في الجزء الخاص بالتاريخ اليهودي. ينظر ترجمنه في بطاقة المؤلف لدى كتابه: "قصة الحضارة" في مكتبة الشاملة.

(99) قصة الحضارة، ويليام جيمس ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود: (130/13)، دار الجيل، بيروت-1408هـ.

(100) مفكر وسياسي هندي (1887-1954م)، اشتهر بالفلسفة الإنسانية الراديكالية. من أشهر مؤلفاته: "الثورة الروسية" (1947)، و"ما خلف الماركسية والنزعة الإنسانية الجديدة" (1948). مستفادة من موقع: https://www.mominoun.com/auteur/746

(101) M. N. Roy Historical of Islam, p.p. 40-41 نقلا من الكتاب: التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب: (ص 27).

(102) لا سكوت بعد اليوم، بول فندلي، ط5: (ص 344)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر-2010م.

أولاً: مراعات جانب الولاء والبراء.

إن موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين أمران مشروعان، قد حض عليهما الإسلام؛ بل إنهما من لوازم كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله، أي لا معبود بحق إلا الله. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي ألا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله وأن يحب ما يحبه الله ويبغض ما أبغضه"[103]. "وإن النطق بالشهادتين، يقتضي العمل بموجبهما ليكون موحدًا من نطق بهما توحيدًا حقيقيًا، ومن مقتضيات شهادة التوحيد، الموالاة في الله والمعاداة فيه، فمن توجه بالولاء والمحبة والنصرة للكفار أينما كانوا فإن هذا نقض لشهادة التوحيد ولو ظل ينطقها مئات المرات"[104].

فالولاء والبراء عقيدة ثابتة عند المسلمين لا يجوز لهم تخلي عنها، وإلا أدى ذلك إلى صدع في اعتقادهم وخلط في مفاهيمهم الشرعية، وهذه العقيدة تحصر الولاء والمحبة والنصرة في المؤمنين، وتقرر البراءة من الكافرين، وبغير ذلك لا يستقيم الدين. قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22]. وقال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54]. فالولاء يكون للمسلمين فقط؛ وهو بمعنى النصرة والمعاونة، والبراءة يكون من الكافرين بشتى مللهم وطوائفهم؛ يعنى التبرؤ من دينهم وما هم عليه من الكفر.

لكن البر والإحسان مع أهل الكتاب وغيرهم الذين ليس بيننا وبينهم حرب، ويعيشون معنا أو نعيش معهم في بلادهم، لا يعني زوال الأمر الأول أو عدم الأخذ به. فإنه وللأسف مع أن النصوص الشريعة قد حذرت عباد الله المؤمنين من موالاة أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، وأن موالاتهم تنافي الإيمان، إلا أنه مع ذلك وقع في موالاة الكفار كثير من المسلمين، ولم يسلكوا المنهج الشرعي في التعامل معهم، حتى وجد من يفضل الكافرين على المسلمين، والله المستعان.

ولسيد قطب رحمه الله كلام نفيس في هذا الصدد حيث يقول: "إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنها يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية وتصطدم -من ثم- بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل في معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة...

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب... بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة... وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم. وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة. وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر... إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة.

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية، يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح. فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله. والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي... إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام".[105]

ثانيا: عدم التشبه بالكفار.

فإن التعايش مع غير المسلمين والتسامح معهم، لا يعني أن يتشبه المسلم بهم، لأن النصوص جاءت متواترة في نهي عن التشبيه بغير المسلم، وأن المسلم لا بد أن يتميز عن غيره في كل أحواله، سواء في

(103) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية: (337/8)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف-1416هـ.
(104) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس بن عبد الله الجلعود، ط1: (141/1)، دار اليقين للنشر والتوزيع-1407هـ.
(105) في ظلال القرآن، سيد قطب، ط17: (912-910/2)، دار الشروق-1412هـ.

العقائد والتصورات، وكذلك في العبادات والسلوك، عادات والتقاليد، ففي كل هذه ينبغي للمسلم أن يتميز ويلتزم بالمشروع.

والسر في هذا واضح، إذ الجماعة المسلمة مستقلة عن الجماعات الأخرى ومتميزة عنها في كل أمورها، ولو أذن الإسلام بالأخذ عن غيره من الأديان والملل كل شيء، ومتابعته فيما يريدون والتشبه بهم، لتلاشت معالم الإسلام وأحكامه، وذابت شخصية المسلمين.

ولهذا جاء الأمر بالتزام الصراط المستقيم والنهي عن سلوك السبل المعوجة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من تشبه بقوم فهو منهم"[106].[107]

ثالثًا: دعوة غير المسلمين إلى الإسلام بالتي هي أحسن.

يجب على المسلمين دعوة الناس للإيمان بالله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125].

وذلك لأن الغاية هي إيصال الدين إلى النفوس بأسلوب سهل، ميسور مقنع، يجعل الإنسان متفهمًا لطبيعة هذا الدين، وأنه جاء لإسعاد الناس في الدنيا والآخرة، فهو يريد أن يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فدين هذه غايته هل يقبل أن يدخل فيه الناس دون اقتناع منهم وذلك بإجبارهم على الدخول فيه، إن هذا القول غير صحيح ولا دقيق لأن الله تعالى صرح في كتابه العزيز حيث قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256]. فالشرع الإسلامي لا يجبر أحدًا على اعتناقه، وما على الرسول أو الداعية إلا البالغ، فإن استجابوا فهي نعمة عظيمة، وإن لم يستجيبوا فلهم ذلك، ولهم الحرية فيما يختارون، ولكن عليهم أن يعطوا ما يعصمون به دمائهم وأموالهم، وعاشوا بذلك في سلم وعهد وأمان مع المسلمين.[108]

الخاتمة

1.أوضح المبحث الأول معنى التسامح بكل المفهومين الغربي والإسلامي، ومناقشة التعريفات.

2. وأوضح المبحث الثاني جذور الفكرية لقضية التسامح، وأسباب التي أدت إلى نتاج فكرة التسامح؛ رواد نظرية التسامح ومؤسسوه، والأسس الفكرية للتسامح في الغرب.

3.وأما المبحث الثالث فقد تناول منطلقات الشرعية للتسامح، وصور التسامح الإسلامي، ونماذج من تسامح المسلمين مع غيرهم، وضوابط التسامح.

وما يلي هي أهم نتائج هذا البحث:

-التسامح مع غير المسلمين له ضوابط يجب الأخذ بها.

-الإسلام ملة سمحة، وسماحته تشمل جميع مجالات الحياة: الفردية والجماعية وفي معاملة المجتمع المسلم بعضهم بعضاً، أو في معاملة غير المسلمين.

-الخلاف في الأديان واللغات والقوميات سنة كونية وظاهرة بشرية، وقد رأى الإسلام هذه الطبيعة البشرية، وقدم أروع صور التسامح في تاريخ.

(106) سنن أبي داود: كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة: ح(4031)، قال الشيخ الألباني: حسن صحيح.

(107) ينظر: الأحكام الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين من منظور لإسلامي، صديقة محمد علي حاج: (ص 111)، رسالة الماجستير-2014م.

(108) سبق أن تكلمنا عن شيء من ذلك في مبحث السابق.

المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم.
-كتب السنة.
-الأحكام الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين من منظور لإسلامي، صديقة محمد علي حاج، رسالة الماجستير-2014م.
-الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، أبو الأعلى المودودي، ترجمة: خليل أحمد الحامدي، ط4، دار القلم، الكويت-1400هـ.
-أضواء على التعصب، مجموعة مؤلفين، ط1، دار أمواج، لبنان-1993م.
-بحثا عن عالم أفضل، كارل بوبر، ترجمة: أحمد مستجير، هيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة-1999م.
-التسامح السياسي المقومات الثقافية للمجتمع المدني في مصر، هويدا عدلي، مركز القاهرة للدراسات حقوق الإنسان، القاهرة-2000م.
-تسامح الغرب مع المسلمين في عصر الحاضر، عبد اللطيف بن إبراهيم الحسين، ط1، دار ابن الجوزي-1419هـ.
-التسامح بين شرق والغرب لسمير خليل وآخرين، ترجمة إبراهيم العريس، ط1، دار الساقي-1992م.
-التسامح والمنابع اللاتسامح، ماجد الغرباوي، ط1، الحضارة، بغداد-1429هـ.
-التسامح وثقافة السلم عند بن باديس، الزور أوري بغور، رواق عربي-2000م.
-التعايش السلمي والتسامح المجتمعي في الموروث الاجتماعي الغربي، فيصل محمد علوي، عبد الله صالح علي خلف، مجلة الفراهيدي، العدد (22) حزيران-2015م.
-الجهاد في الإسلام، محمد سعيد البوطي، ط1، دار الفكر، دمشق-1414هـ.
-حقيقة اللبرالية وموقف الإسلام منها، سليمان بن صالح الخراشي، بدون ذكر الدار-1429-
-خطاب التسامح في فكر الأنوار، مسدوة وهيبة، رسالة ماجستير، جامعة السانية الجزائر-2011م.
-رسالة في التسامح، جون لوك، ترجمة منى أبو سنه، ط1، المجلس الأعلى للثقافة-1997م.
-رسالة في التسامح، فولتر، ترجمة: هنريت عبودي، ط1، دار بترا، دمشق-2009م.
-الفرقان في بيان حقيقة التقارب والتعايش بين الفرق والأديان، عبد الرحمن بن سعد الشثري، شبكة الألوكة.
-فلسفة التسامح عند فلتر، نبيلة خالدي، رسالة علمية-2016م.
-قاموس المورد إنجليزي العربي، لمنير البعلبكي، دار العلم للملايين-2007م.
-قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ويل ديورانت، الترجمة فتح الله محمد المشعشع، ط6، مكتبة المعارف، بيروت-1988م.
-لسان العرب، ابن منظور، ط3، دار الصادر، بيروت-1414هـ.
-المعجم الفلسفي، جميل صاليبا، دار الكتاب اللبناني-1982م.
-معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر-1399هـ.
-مفاهيم فلسفية التسامح، رمضان بسطاويس، ط1، مكتبة الدار العربية للكتاب، القارة-2018م.
-مفهوم التسامح في إطار الرؤية الإسلامية، المجلة المنهل، العدد 518، ربيع الأول-1415هـ.
-مفهوم التعايش في الإسلام، عباس الجراري، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)-1417هـ.
-مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد طاهر عاشور، التحقيق: محمد الحبين بن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر-1425هـ.
-الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس بن عبد الله الجلعود، ط1، دار اليقين للنشر والتوزيع-1407هـ.
-الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد الصادق عرجون، دار السعودية.
-نقد التسامح اللبرالي، محمد بن أحمد مفتي، ركن البحوث والدراسات مجلة البيان، الرياض-1431هـ